

بيان المِنَّة الإلهيَّة على الأُمَّة الإسلاميَّة
في حفظ السُّنَّة النَّبويَّة

- تأريخ السُّنَّة النَّبويَّة -

كتبه

فيصلُ بن محمَّد بن حميدِ القَلَّافُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبدالله
١٤٢٧

المقدمة

رَبِّ، يَسِّرْ وَأَعِنِّ، يَا كَرِيمُ

الحمد لله حتَّى يبلغ الحمد منتهاه، أشهد أن لا إله إلا هو، شهادة الرَّاغب في رضاه،
وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله ومصطفاه، صَلَّى الله عليه، وعلى آله وصحبه ومَن تَبَعَ
هداه، وسلَّم أتمَّ التَّسليم وأزكاه.

أمَّا بعدُ، فهذا مختصرٌ في تاريخ السُّنَّة النَّبَوِيَّة، يشرح كَيْفِيَّةَ نقلها وضبطها، منذ
صَدَرَتْ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى الله عليه وسلَّم - إلى يومنا الحاضر، حيث نقرؤها - بفضل
الله - وافيةً نقيَّةً، واضحةً جليَّةً، وكأنَّه - صَلَّى الله عليه وسلَّم - حيٌّ بين أظهرنا، نسمع
كلامه ونرى أفعاله ونأتمُّ بأحكامه؛ فننتدِّين بدينه: الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَرَضِيَهُ،
لم يَضِعْ منه شيءٌ، ولا زاد فيه شيءٌ، ولا تبدَّلَ منه شيءٌ.

وهذا - مع أدلَّته وشواهد - هو الدَّلِيلُ التَّفْصِيلِيُّ لحفظ السُّنَّة النَّبَوِيَّة، وهو مستندُ
العيان والمشاهدة، ولا يقوم معه إشكالٌ ولا شبهةٌ، وبالله - سبحانه - التَّوْفِيقُ.



توطئة

معنى "تأريخ السُّنة النبوية"

(التَّأريخ) - بالهمز، وقد تُقَلَّب الهمزة أَلْفًا؛ فيقال: (التَّأريخ)، أو واوًا؛ فيقال: (التَّوْريخ) - هو الوقت الَّذي ينتهي إليه الحدث، كما تقول: (تأريخ غزوة بدرٍ هو يومُ السَّابِعِ عَشَرَ من رمضانَ في السُّنة الثَّانية)، وهو أيضًا: ضبطُ مواقيت الأحداث؛ فتقول: (أَرَخَ الكتابَ) أو (وَرَّخَ الكتابَ) على القلب، أي: وَقَّته، بمعنى أَنَّهُ حدَّد وقت كتابته، ويُقال أيضًا: (أَرَحَهُ) و(آرَحَهُ)، والمصدر: (التَّأريخ) و(الأَرخُ) و(المُؤارخة).

والسُّنة في اللُّغة: الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَسِيرُهَا المرءُ في حياته، حسنةٌ كانت أو قبيحةً.

والسُّنة في عُرف المسلمين: هي سُنَّة النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خاصَّة؛ فتكون (أَلٌ) للعهد الدَّهْنِيّ، وقد يُصَرِّحون بذلك بالإضافة أو الوصف؛ فيقولون: (سُنَّة النَّبِيِّ) أو (السُّنة النَّبَوِيَّة)، وهي خير السُّنن وأشرفها.

والسُّنة في الشَّرْع: كلُّ ما صدر عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من تشريعٍ.

وإضافة كلمة (التَّأريخ) إلى كلمة (السُّنة النَّبَوِيَّة) للتَّخصيص؛ فهو التَّأريخ المختصُّ بالسُّنة النَّبَوِيَّة، أي: بنقلها وحفظها.

فالمقصود بتأريخ السُّنة النَّبَوِيَّة - اصطلاحًا - وَصْفُ مراحل نقلها عبرَ القرون، وَرصدُ تَطَوُّرِ علومها ووسائلِ حفظها وموانع ضياعها وتحريفها، ودراسةُ أسباب التَّطَوُّر في كلِّ مرحلةٍ، ونتائجها، وَتَتَبُّعُ الشَّواهد الدَّالَّة على ذلك كُلِّهِ؛ لِنفهم كيف حفظها الله فهماً تفصيلياً دقيقاً، مؤيِّداً بالأدلة الواقعية.

فذلك يُشبه حكاية قصَّة السُّنة النَّبَوِيَّة منذ صَدَرَتْ من النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتَّى بلغتنا اليومَ بكمالها وصفائها، وكأَنَّنا نعيش تلك القرون الطَّويلة، وتلك الأحداث الكثيرة، وَنَرُقُبُ جهود الطَّبقات المتتابعة من المسلمين من الرُّواة والتُّقَاد والعلماء، جزاهمُ الله عنَّا خيراً.

تتمّة: تأريخ السنة النبوية يتضمّن تأريخ الوسائل التي اقتضت حفظها، ويمكن إفراد تأريخ كلّ وسيلة منها في مسارٍ مستقلٍّ؛ لإبرازها، وبسطِ مسائلها وأطوارها، فمن ذلك: كتابة الحديث، والرحلة في طلبه، وكيفية تحمّله، والتعامل مع الأسانيد، وعلوم الرجال، وعلم المصطلح، فلكلّ وسيلةٍ من هذه مسارٍ تاريخيٍّ مميّز، لكنّا في هذا المختصر نمزج ذلك كلّ في سياقٍ واحدٍ.

فائدة: تأريخ كلّ حديثٍ هو إسناده؛ لأنّ الإسناد يحكي لنا كيف انتقل الحديث تفصيلاً في كلّ طبقةٍ من الطبقات، وصيغُ الأداء قد تدلّنا على صفات أدائه وتحمّله، لكنّا في هذا المختصر نشرح كيفية نقل السنن عموماً، ولا نعرض لحديثٍ بخصوصه.



تمهيد

أدلة حفظ الله - عز وجل - للسنة النبوية

لَمَّا كَانَ هَذَا الدِّينُ خِتَامَ رِسَالَاتِ اللَّهِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَجِبَ حِفْظُهُ، وَذَلِكَ بِحِفْظِ مَصْدَرِيهِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ - جَلَّ شَأْنُهُ - وَحُكْمَتَهُ تَوْجِبَانِ أَنْ تَبْقَى حُجَّتُهُ فِي الْأَرْضِ؛ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلَهُ، وَتُمْكِنَ عِبَادَتُهُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَيَحْصُلَ مَقْصُودُهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الدَّارِيَات: ٥٦].

وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِحِفْظِهِ لِلْوَحْيِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَالذِّكْرُ فِي الْآيَةِ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِحِفْظِهِ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَحِفْظُ مَعْنَاهُ يَسْتَوْجِبُ حِفْظَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ لَكَوْنِهَا الشَّارِحَةَ لَهُ وَالْمُبَيِّنَةَ لِحَمَلَاتِهِ وَالْمَفْصِلَةَ لِحُكْمَاتِهِ، وَقِيلَ إِنَّ الذِّكْرَ فِي الْآيَةِ يَعُمُّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ جَمِيعًا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وَقَالَ فِي مَوْضِعَيْنِ آخَرَيْنِ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، وَالصَّف: ٩]، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَبْقَى الدِّينُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لِتَقُومَ بِهِ الْحُجَّةُ، وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا مَعَ حِفْظِ السُّنَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ مَعْصُومَةٌ مِنَ الضَّلَالِ؛ لِأَدَلَّةٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَهَذَا يَمْنَعُ مِنْ تَفْرِيطِهِمْ فِي نَقْلِ الدِّينِ، وَمِنْ فَوَاتِ الْحَقِّ عَلَى مَجْمُوعِهِمْ، وَيُوجِبُ أَنَّهُمْ أَحْكَمُوا نَقْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَلْفَاظًا وَمَعَانِي.

وَأَيْضًا: فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَدْ حَفِظَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ.

تَمَّة: لَا يَتَشَكَّكُ الْوَاقِفُ عَلَى طَرُقِ الْأَحَادِيثِ وَاشْتِجَارِهَا فِي صِحَّةِ عَمَلِيَّةِ النَّقْلِ؛ لِتَصْدِيقِ الرُّوَاةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَضَافُرِ الْأَسَانِيدِ وَالْمَتُونِ، وَمُوَافَقَةِ أَحْكَامِ الْعُلَمَاءِ لِمُقْتَضَيَاتِ

القواعد، في توارُد دقيق: يمتنع على أهل الحديث - مع اختلاف عصورهم وأمصارهم ومقاصدهم - تركيبه، وهذا دليلٌ عظيمٌ يدركه أهل الحديث بالممارسة وملاحظة القرائن، وإن قَصُر عنه غيرهم لقلّة اطلاعهم، ولا يتهيأ مثلُ هذا الدليل لأهل البدع في كتبهم المفتعلة؛ لشذوذ رواياتها، واضطراب مروياتها، فضلاً عن أهل الكتابين وليس لهم إسنادٌ أصلاً، ولا معرفةٌ بمصادر كتبهم وتواريخها.

وفي الجملة: فالأدلة الجُمليّة على حفظ السنة النبويّة كثيرةٌ جدّاً: عقلاً وشرعاً، وهي تفيد القطع بمجموعها، ولبسطها موضعٌ آخر، ويزدادُ القطع بذلك قوّة بالنظر التفصيليّ في تأريخ نقل السنة النبويّة، وملاحظة وسائل حفظها، وتطوُّر ذلك بحسب الحاجة، وفهم ماخذِ قواعد "علوم الحديث" ودقّتها.

تنبيه: ضاعت كتب الأمم السابقة، واندثرت آثار أنبيائها، فكان الله - عَظُم فضله - يبعث أنبياءه يستدركون ما فات أقوامهم، ويجددون فيهم دينه؛ فبذلك: لم ينافِ تحريفُ تلك الأديانِ رحمةَ الله ولا حكمته، بخلاف هذه الأمة الإسلامية؛ فقد حُتِمَت النبوة ببعثة نبيّها محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، ولو ضاع دينه، لَبَقِيَ النَّاسُ فِي جَهَالَةٍ مُطَبَّقَةٍ، وضلالةٍ دائمةٍ؛ إذ لا وحيَ بعده فيُصلِح ما يَفْسُدُ من دينه.



مدخل

معنى حفظ الله - عز وجل - للسنة النبوية

تكفل الله - عز وجل - بحفظ دين الإسلام، وقد صدق وعده؛ فشرع للمسلمين الأسباب الموجبة لحفظ الكتاب والسنة النبوية، وهداهم للعمل بها، ووفقهم في ذلك.

فأما الكتاب، فهو مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، ومُعْجَزٌ بلفظه ومعناه، فوجب أن يتواتر؛ لتبقى الحجة على الخلق، ويستمر أعظم أدلة النبوة.

فرغب النبي - صلى الله عليه وسلم - في قراءته وحفظه وتعليمه؛ فتسابق الصحابة في ذلك؛ فتلّوه عنه - صلى الله عليه وسلم - وقرءوه وحفظوه وكتبوه، ثم نقلوه إلى التابعين، ثم اجتهد التابعون كذلك، وهكذا تداوله المسلمون طبقة بعد طبقة، مجموعاً في الصدور، ومكتوباً في المصاحف، منقولاً بأعلى درجات التواتر، تنقله الكافة عن الكافة؛ فحفظ بدقة بالغة، حرفاً حرفاً، حفظاً لا نظير له في تاريخ البشرية كله، والحمد لله.

وأما السنة، فلم يُمكن نقلها مثل نقل القرآن؛ لانتشارها وانتشارها، ولو كلف الله المسلمين أن ينقلوها مثل ما شرع لهم في نقل القرآن، لأعنتهم أعظم العنت، ولعجزوا عنه. والسنة هي معدين الأحكام التفصيلية، ويكفي في اتباعها - اعتقاداً وعملاً - النقل الأحادي، الموجب للتصديق الصحيح المستند إلى دليل قوي.

فخفف الله برحمته وحكمته على المسلمين؛ فرضي منهم أن ينقلوا السنة بالطرق الممكنة الكافية في تحقيق المقصود، نقلاً منضبطاً دقيقاً.

فرغب في تعلم الحديث، وسماعه، وحفظه، وتبليغه، ومذاكرته، وشرع لهم التثبت في الأخبار، وحذرهم من الكذب مطلقاً، وفي الدين خاصة، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن التساهل في الرواية عنه، ودل على كثير من قواعد علوم الحديث.

فاجتهد المسلمون في امتثال هذه التشريعات جيلاً بعد جيلٍ، وأعانهم الله عليها، حتَّى نُقِلَتِ السُّنَّةُ بتمامها نقلاً منصبطاً، وامتاز صحيحُها من ضعيفها بمنهج علميٍّ دقيقٍ؛ فقامتِ الحجةُ، واطمأنتِ القلوبُ، والحمد لله.

فائدة: يؤخذ ممَّا سبق أنَّ الَّذِي حفظ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ حقيقةً هو الله تبارك وتعالى، وأنَّه سحَّرَ لذلك العلماءَ والحفاظَ والرُّوَاةَ والتُّسَاخِ؛ فيُضَافُ حفظ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ إليه - تعالى - إضافةً الفعل إلى فاعله، وإلى مَنْ سحَّره إضافةً الفعل إلى سببه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٣ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ١٤ [الواقعة]، والمعنى: أنكم تباشرون السَّببَ بالحرث، ثمَّ الله - تبارك وتعالى - هو المُنْبِتُ في الحقيقة.

وبعدُ، فهذا أوان الشُّروع في المقصود، وهو تفصيل تأريخ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وذلك في عشر مراحل، وبالله - سبحانه - التَّوفيقُ.



(١)

عصر النبي صلى الله عليه وسلم

١. تكلم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالسنة وأظهر التشريعات في مواضع متفرقة، وخلال فترة زمنية طويلة؛ فكان يشهده من شاء الله من الصحابة، ثم كانوا يتناقلون ما سمعوه أو شهدوه، حتى شاعت السنن في زمنه صلى الله عليه وسلم.

٢. وكان - صلى الله عليه وسلم - يحسن أداء حديثه؛ لتهيئاً فهمه وحفظه؛ فكان يترسل في الكلام، ولا يسرّده سرّداً، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً، وقد أوتي جوامع الكلم؛ فكان يُقِلُّ حتى لو عدّ العادُ كلامه لأحصاه، وكان يستنصت مخاطبيه ليستعدوا للتلقي، وكان فصيحاً بليغاً، عذب الكلام، خلّو المنطق؛ فكان حديثه يتمكّن من القلوب؛ فيرسخ فيها.

٣. وكان أصحابه يُحبّونه، ويتديّنون بسنته، ويحرصون على حديثه؛ فيقبلون على كلامه وهم مستعدّون لضبطه؛ فيقعّ منهم موقعاً عظيماً؛ فيحفظونه أشدّ من حفظ الناس لكلام غيره.

٤. وكانوا يحرصون على حديثه، ويجتهدون في الاستكثار منه؛ فكان أبو بكر وعمر يصحبانه في مدخله ومخرجه، وكان الزبير لا يفارقه، وكان أبو هريرة يلزمه، وكان أنس يخدمه في بيته وسفره، وكان عمر وجارّ له أنصاريّ يتناوبان على مجالسه، ثم يلتقيان ليستدرّك كلّ منهما ما فاته من السنن، وكان أزواجه يضبطن ما يكون في بيته.

٥. وكانوا مع ذلك كلّهم يجتهدون في مذاكرة ما سمعوه؛ ليثبت، ونشره، وتعليم أهليهم وأولادهم ومن يسألهم، وبهذا اشتهرت السنن في المدينة المنورة، وكثرت حملتها والعالمون بها.

٦. وأيضاً، فقد أذن - صلى الله عليه وسلم - في كتابة حديثه؛ فاستعان بعض الصحابة بذلك على الحفظ والمراجعة.

فاجتهد عبد الله بن عمرو في كتابة كل ما يسمعه، وسعد بن عبادَةَ كتابًا أو كتبًا، وعليُّ بن أبي طالبٍ أحاديث، وأبو سعيدٍ الخُدريُّ حديثَ التَّشهُد، ورافعُ بن خَدِيجٍ حديثَ حُرمة المدينة في أديمِ حَوْلاني، وأنسُ بن مالكٍ أحاديثَ ثمَّ عَرَضَها على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقالَ جُمعٌ من الصَّحابة: «كلُّ ما سمعناه منه - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - هو عندنا في كتابٍ».

٧. وكتب - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - ببعضِ سُننه إلى الملوك، وإلى مَنْ يحتاجها من المسلمين خارجَ المدينة، فكتب إلى جَهينة في ترك الانتفاع بالمدينة، وإلى الضَّحَّاك بن سفيان في توريث امرأة أشيم الضَّبَّابيِّ من دية زوجها، وإلى أهل اليمن كتابَ الفرائض، الَّذي بعث به عمرو بن حزم، وكتب لأبي شاه خطبته يومَ فتح مَكَّة.

٨. وكان يبعث رُسُلَه إلى القبائل والبلاد ليُعَلِّموهم، فأرسل مصعبَ بن عُميرٍ إلى المدينة قبل الهجرة، وأبا موسى الأشعريَّ ومعاذَ بن جبلٍ إلى اليمن، وعاصمَ بن ثابتٍ وجماعةً في بعث الرِّجيع، والمنذرَ بن عمرو وجماعةً إلى نجد، والعلاءَ بن الحضرميِّ إلى البحرين، وعَتَّابَ بن أسيدٍ إلى مَكَّة.

٩. وكان النَّاسُ يرحلون إليه من البلدان البعيدة؛ ليتعلَّموا دينه وسُنَّته، فرحل إليه جماعةٌ وهو في مَكَّة، منهم عمرو بن عَبَّسة وأبو ذرَّ الغفاريُّ والطُّفيلُ بن عمرو الدَّوسيُّ، وأتاه جماعةٌ من الأعراب في المدينة كذلك، ورحل إليه آخرونَ ليستفتوه فيما أشكل عليهم، كما في قصَّة العَسيف.

١٠. وكانت القبائل ترسل الوفود إليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيتعلَّمون منه، ثمَّ يرجعون إليهم فيبلِّغونهم ويفقهونهم؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ومن ذلك: وفد عبد القيس، ومالكُ بن الحُوَيرث وأصحابه.

١١. وبمجموع ذلك ذاعت السُّنن، حتَّى بلغت الآفاق، وعمَّت أهل ذلك القرن، حتَّى قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لقد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يَزِغُ عنها إلَّا هالكٌ»، وأشهد الله في حجة الوداع على أُمَّته أنَّه قد بلغ وأدَّى الأمانة ونصح.

١٢. ثم مضى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه، وقد بلغ البلاغ المبين.

تنبيه: حديث «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن» فيه بحوث: فالأرجح وفقه؛ لأن الوقف رواية الأكثر والأحفظ، فإن صحَّ، فالأرجح نسخته، وقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - بكتاب قبل موته بأيام، وإلا، وجب تخصيصه بمن يُخشى عليه اختلاط السنة بالقرآن، أو تقييده بكتابة تختلط فيها السنة بالقرآن.

تنبيه آخر: لم يُعرف كذب على النبي - صلى الله عليه وسلم - في حياته؛ لتغليظه في ذلك، واجتهاد أصحابه في إذاعة سننه وأخباره، حتى امتنع الكذب عليه.

وروي أن رجلاً أتى بني ليث - وهم على ميلين من المدينة - وعليه حلة، فقال: «إن رسول الله كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم»، ثم انطلق فنزل على امرأة منهم كان خطبها في الجاهلية فلم يُزوجوه، فأرسل القوم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «كذب عدو الله»، ثم أرسل رجلاً فقال: «إن وجدته حيًّا - وما أراك تجده حيًّا - فاضرب عنقه، وإن وجدته ميتاً فاحرقه بالنار»، فجاءه فوجده قد لدغته أفعى فمات، فحرقه بالنار، وهذا حديث منكّر.

تتمّة: كان الصحابة في أمة أميّة، والكتابة فيهم نادرة؛ فكانوا يعتمدون الحفظ في نقل أنسابهم وأشعارهم وأخبارهم؛ فكان يسهل عليهم حفظ ما يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيحكموه ولا ينسوه.

وكانوا شديدي التحري للصدق، لأن العرب كانت تستقبح الكذب، وتراه دناءة من فاعله، وعاراً يُعاب به، مع تغليظ الشريعة للكذب في الدين، وقد تواتر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»، والظاهر أنه قاله في مواضع؛ فكرّره على أسماعهم، وأكّده في نفوسهم، وقال أنس بن مالك: «ما كُتِّبَ نكذب، ولا ندري ما الكذب».

فائدة: إذا وصلنا الحديث من رواية صحابي واحد، فإن هذا لا يستلزم عدم سماع غيره معه؛ لأن الصحابة قد يكتفون بنقل بعضهم، ويرون الواجب سقط عنهم بذلك، ثم

قد يروي الحديث صحابة، ثم تنقطع الرواية عن بعضهم؛ لضعف الرواية في بلدانهم، أو لنزول الإسناد عنهم، أو لخلل في الطبقات التالية، ويقتصر المسلمون على الرواية عن واحد منهم؛ لاتصال الإسناد إليه، أو علوه، أو قوته، ويروا ذلك كافيًا في قيام الحجّة.



مكتبة
مكتبة
مكتبة

(٢)

عصر الصحابة، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

١. ثم افتتح الصحابة - رضي الله عنهم - الأمصار، وانتشروا فيها، وأقاموا فيها، يعلمون الناس دينهم، وينشرون فيهم السنن، حتى اشتهرت في كل مكان.
٢. وكان بعضهم يسمع من بعض؛ ليستدرك ما فاته من السنن، وكان صغارهم يلزمون كبارهم؛ فيسمعون منهم ما لم يدركوه من السنن، ثم يروي بعضهم ما سمعوه من بعض، وكانوا عدولاً؛ فلم يكن بعضهم يكذب بعضاً، ولا كان بعضهم يتهم بعضاً.
٣. ورحل بعضهم في طلب الحديث، فرحل جابر إلى عبد الله بن أنيس ليسمع منه حديث القصاص يوم القيامة.
٤. وحث بعضهم على مذاكرة الحديث؛ لئلا ينسى، وزوي أن أبا هريرة كان يمضي ثلث ليله في ذكر الحديث، وأن عمر كان يستدعي الحديث منه، ويسأله عنه.
٥. واستعان بعضهم بالكتابة، فكتب ابن مسعود كتاباً بخطه، فكان مع ابنه عبد الرحمن من بعده، وكان ابن عمر لا يخرج من بيته غداة حتى ينظر في كتبه، وكتب أنس عن عتب بن مالك حديثاً في فضل الشهداءين، وكان ابن عباس يأتي أبا رافع، فيسأله عن أحاديث، ومعه ألواح يكتب فيها، وجمع سعيد بن سعد بن عباد كتاباً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعدد من الصحابة.
٦. وكتب بعضهم إلى من يحتاج شيئاً من السنن، فكتب أبو بكر إلى أهل البحرين كتاب الزكاة، وعمر إلى جنده بأذربيجان، وأسيد بن حضير إلى مروان بن الحكم، وجابر بن سمرة إلى عامر بن سعد، وسمرة بن جندب إلى ابنه سليمان، وعبد الله بن أبي أوفى إلى عمر بن عبید الله، وغيرهم.
٧. وهم عمر بجمع السنة وتدوينها، فوافقه الصحابة، ثم ترك ذلك؛ لئلا يشغل الناس بالحديث عن القرآن، وقد أحسن في همّه وتركه.

٨. ومنهم من كره كتابة الحديث، لا تحريمًا، ولا استنادًا إلى نهي نبويٍّ، لكنّ لئلاّ يعتمد القلب على الكتاب؛ فيضعف حفظه، أو لئلاّ يشتغل الناس عن القرآن، أو لئلاّ يقع الكتاب إلى جاهلٍ فيصحّفه، أو إلى من لم يتسع في معرفة السنن فيضللّ في معناه.

٩. وكانوا يحتاطون فيما يسمعون، ويشددون على من يسمعون منه، ويبالغون في التثبت أحيانًا، فطلب أبو بكرٍ شاهدًا للمغيرة بن شعبة في ميراث الجدّة، وعمرُ شاهدًا لأبي موسى في حديث الاستئذان، وكان عليّ بن أبي طالبٍ يستحلف من حدّثه إلّا أبا بكرٍ، واختبرت عائشةُ حفظَ عبد الله بن عمرو، ونقد عمرُ حديث فاطمة بنت قيس في نفقة المطلقة ثلاثًا، ونقدت عائشةُ متونَ أحاديث كثيرة، واختلف سمرّة بن جندبٍ وعمران بن الحصين في حديث؛ فكتبوا إلى أُبَيٍّ فرجّح قول سمرّة، وأعرض ابنُ عبّاسٍ عن حديث لبشير العدويّ؛ خشية خللٍ فيه.

١٠. وكانوا يُعظّمون الرواية عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان من ورعهم أنّهم إذا شكّوا في لفظٍ في الحديث، مع اطمئنانهم إلى تمام المعنى، احتزوا من نسبة ذلك اللفظ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فيقولون في آخر الحديث: (أو كما قال، أو نحو ما قال).

١١. وكانوا يجتهدون في الجمع بين الرواية والاحتياط؛ فكان منهم من يُقلّ؛ خشية الخطأ، واعتمادًا على تبليغ غيره، كالزبير بن العوّام وعبد الله بن عمر، وغلّظ عمرُ في الإكثار من الحديث لغير حاجةٍ حاضرة، وأمر بالإقلال من الرواية؛ لئلاّ يتساهل الناس فيخطئوا، وكان منهم من يُكثر؛ ثقةً منه في ضبطه، مع توقّيه من الرواية عند الشكّ، كأبي هريرة، وقد دعا له النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أن يحفظ ما يسمعه منه؛ فكان لا ينسى شيئًا سمعه منه.

١٢. وكان واثله بن الأسقع يُملّي الحديث على أصحابه من التابعين فيكتبون عنه، ثمّ شاعت مجالسُ الإملاء بعدُ.

١٣. وهكذا حفظ الصحابة السنّة، وأذاعوها، حتّى كثر الآخذون عنهم من التابعين، وتعلّموا منهم مناهجهم في البلاغ والاحتياط والتثبت.

تتمّة: الصحابة كلهم عدولٌ ظاهرًا وباطنًا؛ لتزكية النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - لنفوسهم، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وذكر بعض العلماء أنّ رؤية النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - تؤثر نورًا قلوبًا في نفس المُقبل عليه، المُستعِدّ للاهتداء به، والله أعلم.

وعداletهم ثابتة قطعًا بآيات كثيرة، وأحاديث صحيحة، وبالإجماع المؤكّد، وكلٌّ من خبر سيرهم وآثارهم رأى عدالتهم رأي العين، ولم يثبت في حقّ واحدٍ منهم ما يوجب قدحًا فيه.

تتمّة: روايات الصحابة جميعهم قليلة بالنسبة إلى ما سمعوه من النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - وما صحّبه، وهذا من دلائل احتياطهم في الرواية، وإقلالهم في الجملة، حتّى أبي هريرة رضي الله عنه؛ فإنّه صحب النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - أربع سنين، ولزمه لزومًا تامًّا؛ فتحمل عنه ما لا يُحصى من أقواله وأفعاله وأحواله، ومع ذلك: فلم يصح عنه ألف حديث، وقد يتحملها الطالب في شهرٍ بغير حرصٍ ولا جدّ.

فائدة: ذكر بعض العلماء أنّ المُكثّرين من الصحابة سبعة، وهم من له أكثر من ألف حديث في مسند بقي بن مخلد، وهم: أبو هريرة، وابن عمر، وأنس، وعائشة، وابن عباس، وجابر، وأبو سعيد الخدري، ثم أصحاب المئين في مسند بقي سبعة أيضًا، وهم: ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وعمر، وعلي، وأمّ سلمة، وأبو موسى الأشعري، والبراء بن عازب.

وهذا عدّ تقريبي، وليس دقيقًا؛ فيستأنس به، ولا يُعتمد عليه؛ لأنّ بقيًا يُكرّر الطُّرق؛ فتكثر أحاديث صحابيٍّ؛ لكونه رواها عنه من طرق كثيرة، وتقلّ أحاديث صحابيٍّ آخر؛ لكونه لم يُكرّر تكرارها، ثمّ قد تفوته أحاديث صحابيٍّ خرّجها غيره، وأيضًا، فإنّ في مسنده الصحيح والضعيف الذي لم يروه الصحابيُّ أصلًا.

فائدة أخرى: المُخضرمون هم الذين أدركوا زمن النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - ولم يلقوه؛ فليسوا من الصحابة، وإن كان فيهم من هم أسنُّ من كثيرٍ من الصحابة، وقد أخذ

هؤلاء المُخَضَّرَمُونَ عن كبار الصحابة وعلمائهم، وهم سابقون لغيرهم من كبار التابعين:
الذين وُلِدُوا بعد وفاة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



مُسَوِّدَةٌ فَدَيْحَةٌ

(٣)

عصر التابعين

١. واجتهد التابعون في السماع من الصحابة؛ فكثرت طلبه الحديث فيهم، وحملته، وحفظته، وقال ابن سيرين: «قدمت الكوفة، فرأيت فيها أربعة آلاف يطلبون الحديث»، ومنهم من لزموا شيوخهم من الصحابة سنين طويلة حتى أخذوا عنهم أحاديث كثيرة.

٢. وكثرت رحلات التابعين إلى الصحابة؛ لسماع ما لم يبلغهم، أو للتثبت من حديث بلغهم، أو للعلو إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ طلباً لمزيد من اليقين.

فكان ابن المسيب يرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد، ورحل ابن الديلمى من فلسطين إلى الطائف ليسأل عبد الله بن عمرو عن أحاديث بلغته عنه، ورحل الحسن البصري إلى الكوفة ليسأل كعب بن عجرة عن فدية الأذى، ورحل أبو قلابة الجرمي من البصرة إلى المدينة في حديث، وكان أصحاب ابن مسعود يسمعون الحديث في الكوفة عن عمر، فيرحلون إلى المدينة ليسمعه منه مباشرة.

٣. وكان بعض الصحابة يحثُّ التابعين على كتابة الحديث، فكان أنس يقول لبنيه: «قيدوا العلم بالكتاب»، وسئل أبو أمامة الباهلي عن كتابة الحديث، فقال: «لا بأس»، وأخذ بعض التابعين عن صحابة آخرين كراهية الكتابة، وكان منهم من يكتب ليستحفظ ثم يحو ما كتبه ليقر حفظه ولا يتكل قلبه على الكتاب فينسى.

٤. وكثرت الكتابة فيهم، فكتب جماعة منهم أحاديث شيوخهم من الصحابة في صُحف، فمنها صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة، وصحيفة بشير بن نهيك عنه، وصحيفة سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وصحيفة مجاهد عنه، وصحيفة عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ورثها ابنه معن من بعده، وصحيفة أبي الزبير المكي عن جابر وغيره، وصحيفة أبي قلابة الجرمي عن شيوخه من الصحابة، وقد خلف كتباً كثيرة، أوصى بها لأئوب السخيتاني، فكان يحدث بها من بعده.

٥. وتَعَقَّل مروانُ بن الحكم - وهو أميرٌ على المدينة - أبا هريرةَ، فأمرَ مَنْ كتب حديثه كلَّهُ، فلمَّا علم أبو هريرةَ، طلب منه أن يمحوه ويعتمدَ على حفظه، فمحاَهُ.
٦. واتَّسع صالحُ بن كيسانَ وابنُ شهابِ الزُّهريُّ في حَدَاثتهما؛ فكتبَا الأحاديث النَّبَوِيَّةَ، ثُمَّ كتب الزُّهريُّ آثارَ الصَّحابةِ أيضًا.
٧. ثُمَّ أمرَ عبد العزيزُ بنُ مروانَ كثيرَ بنِ مُرَّةَ أن يكتبَ له ما سمعَ مِنَ الصَّحابةِ، إلَّا حديثَ أبي هريرةَ؛ لأنَّه كان عنده.
٨. ثُمَّ كتب ابنه عمرُ بن عبد العزيزِ على رأسِ المِائةِ إلى علماء المدينة، ولا سيَّما أبي بكرٍ بن محمَّد بن عمرو بن حزم، وابنِ شهابِ الزُّهريِّ، يأمرهم بتدوين ما عندهم مِنَ السُّنَنِ؛ لينتسخوها ممَّا كتبوه نُسخًا تُنشر في الآفاق.
٩. وظهرت بوادرُ التَّصنيفِ في صغارِ التابعين؛ فكانوا يجمعون أحاديثَ أبوابٍ مفردةٍ يحتاجون إليها؛ ليراجعوها ويضبطوها، فكتب أبو العالية الرِّياحيُّ بابَ الصَّلَاةِ وبابَ الطَّلَاقِ، وكتب الشَّعْبِيُّ بابَ الطَّلَاقِ.
١٠. وكانوا يَحْثُون على مجالسِ المذاكرة؛ لإحياء الحديث في القلب؛ فيثبت ولا يُنسى، وقال عبد الرَّحْمَنِ بنُ أبي ليلَى: «إحياء الحديث مذاكرته»، فقال له عبد الله بنُ شَدَّادٍ: «رحمك الله، كم من حديثٍ حسنٍ قد ذُكِّرَتْ بِهِ».
١١. واجتهدوا في أداء الحديث؛ فكان منهم من يحتاط؛ فلا يروي إلَّا باللفظ الَّذي سَمِعَهُ، ومنهم القاسمُ وابن سِيرِينَ ورجاءُ بن حَيَّوَةَ، وكان منهم من يروي بالمعنى، فإذا تفلَّت بعض الألفاظ من قلبه، وبَقِيَ المعنى ثابتًا في نفسه، أدَّى المعنى كاملاً بعبارةٍ أخرى دقيقة، ومنهم الحسن البصريُّ وإبراهيمُ النَّخَعِيُّ والشَّعْبِيُّ.
١٢. وعقد بعض التابعين مجالسَ للإملاء، يجتمع فيها طلبة الحديث؛ فيسمعون منهم، ويكتبون عنهم، فمنهم أبو الأَحْوصِ عوفُ بن مالكِ الجُشَمِيُّ والزُّهريُّ وعِكرمةُ بنُ عَمَّارٍ وجماعةٌ؛ فكثُرَ حَمَلَةُ الحديث وكتبته عنهم.
١٣. وأرسل عمرُ بن عبد العزيزِ نافعًا مولى ابن عمرَ إلى مصرَ؛ ليُعَلِّمَهُمُ السُّنَنَ.

١٤. وقد هاجت الفتنة العظيمة التي قُتِلَ فيها عثمانُ سنة ستٍ وثلاثين، فخرجت الخوارج، ثم ظهرت الرافضة، واستعملوا الكذب، فزوّرت الخوارج الكتب على الصحابة؛ للتّحريض بينهم، ثم افترت السبئية والرافضة في الدين؛ لتأكيد غلوهم في عليّ، ثم ظهر تعمّد الكذب على النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - بعد خروج المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقد قُتِلَ سنة سبعٍ وستين.

فابتدأ في أوّل تلك الفتن سؤال التابعين عن الإسناد، ثمّ تزايد في أثنائها مع تزايد الكذب، حتّى صار منهجاً لازماً، وكان العهد بالنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - قريباً، والصحابة متوافرين، والروايات مشهورةً عمّن أسندها منهم؛ فضبط نقل الحديث، وعُرف مخرجه، وامتناز الصّدق من الكذب.

١٥. ولزم من النّظر في الإسناد التّفقّيش عن أحوال الرّواة: جرحاً وتعديلاً، وكان أهل السّنة بريئين من أسباب الكذب؛ فقبِلَ حديثهم، وإنّما احتاج إلى الكذب أهل البدع؛ ليجدوا مستنداً يتكئون عليه فيما أحدثوه؛ فردّ حديثهم.

١٦. وكانوا يختبرون الرّواة؛ ليعرفوا ضبطهم لحديثهم، وسأل إبراهيم النّخعي أبا زرعة بن عمرو بن جرير البجليّ عن حديث، ثمّ سأله عنه بعد سنةٍ أو سنتين، فلم يحرم منه حرفاً؛ فاستدلّ بذلك على حفظه.

١٧. ونتج عن ذلك ذكرهم لبعض قواعد النّقد، التي استفادها من بعدهم؛ فكانت اللّبنات الأولى لبناء علم "المصطلح".

١٨. وفي الجملة: فقد أدّى التابعون السّنة أحسن الأداء، وأكّدوا فيمن بعدهم مبادئ التّنبّه.

فائدة: ذكر بعض العلماء أنّ ابن شهاب الزّهريّ هو أوّل من دَوّن العلم، وجهد آخرون في توجيه ذلك، وإنّما يعتمد من قاله على رواية محمّد بن الحسن بن زُبالة عن مالكٍ مرّةً، وعن الدّراورديّ مرّةً، وابن زُبالة متروك؛ فروايته واهية، وهي منكّرة أيضاً؛ لمخالفة الروايات الصّحيحة؛ فلا حاجة بنا إلى التّشاغل بتأويلها.

فائدة أخرى: كان الغالب على كبار التابعين العدالة والصدق والأمانة، وكان الناس يروون الأحاديث مرسلّة قبل عموم السؤال عن الإسناد فتقبل منهم بغير تكبير؛ فلذلك قيل بعض العلماء مراسيلهم، ثم ظهر الضعف مع تفشي الأهواء والبدع في طبقة المتوسّطين من التابعين ومن بعدهم، وصار يُخشى في كتمان الإسناد الضعف؛ فلذلك ردّ جمهور العلماء مراسيلهم.

فائدة أخرى: قال الذهبي: «أمّا التابعون، فيكاد يُعدم فيهم من يكذب عمدًا، ولكن لهم غلطٌ وأوهامٌ، فمن نذر غلطه في جنب ما قد حصل، احتمل، ومن تعدّد غلطه وكان من أوعية العلم، اغتفر له أيضًا ونُقِل حديثه وعُمِل به، على تردّد بين الأئمة الأثبات في الاحتجاج بمن هذا نعتُه ... ومن فحش خطؤه وكثر تفرّده، لم يُحتجّ بحديثه، ولا يكاد يقع ذلك في التابعين الأوّلين، ويوجد ذلك في صغار التابعين فمن بعدهم».



(٤)

عصر أتباع التابعين

١. وعمت السنن في أتباع التابعين، وكثر نقلتها وحفظتها جداً.
٢. وصارت الرحلة سنة متبعة عندهم، يجمع الرجل حديث أهل بلده، ثم يرحل في جمع أحاديث غيرهم، ويطلب العلو أيضاً، ورحل شعبة في تتبع إسناد حديث، واتسع جماعة من صغار هذه الطبقة في الرحلة وجمعوا بين الأقطار، منهم ابن المبارك وزيد بن الحباب وأبو داود الطيالسي.
٣. واندثر القول بكرة الكتابة في هذا العصر، وانعقد الإجماع على أهميتها؛ فكثرت كتابة الأحاديث، ولا سيما في مجالس الإملاء.
٤. واشتهر تصنيف الحديث على الأبواب؛ فوضع جماعة من العلماء الجوامع والموطآت والتصانيف، فمن أولهم ابن جريج في مكة، وابن إسحاق في المدينة، ومعمّر في اليمن، والأوزاعي في الشام، وهشام بن حسان وسعيد بن أبي عروبة والربيع بن صبيح في البصرة، والثوري في الكوفة، ثم كثرت المصنفات، واعتمدوا في بعض ذلك على كتابات التابعين من قبلهم.
٥. وكتب مالك بن أنس "موطأه" المشهور، وتحرى فيه الرواية عن الثقات، واشتد شرطه فيه؛ فلم يخرج إلا ما صح عنده، ولو علقه أو أرسله.
٦. وكثرت مجالس الإملاء، ولا سيما للمصنفات، ثم عظمت هذه المجالس؛ فاتخذوا المستملين لتبليغ من بعد في أطرافها؛ فسمع فيها عدد كثير من طلبة الحديث؛ فكثرت حملته وحفظته وكتبته والمشتغلون به.
٧. ولما بدأت الأسانيد تطول، وتشعب، ويختلف رواها، وتختلف متونها، وتوقف ضبط الحديث على مزيد حفظ، ظهر الخطأ في الرواة القاصرين، وكثرت في الروايات؛ فاتسع

أئمة أتباع التابعين في التفتيش عن أحوال الرواة، والكلام فيهم جرحاً وتعديلاً، وبيان مراتبهم من الضبط والإتقان، حتى دون الليث بن سعد أول كتاب في تاريخ الرواة.

٨. واختبروا الرواة، وكان حماد بن سلمة يقلب الأحاديث على ثابت البناني؛ فيغير روايتها؛ فيجيء بها ثابت على استواء، فاستدل بذلك على حفظه، وكان يحيى القطان إذا رأى الرجل يروي الحديث من حفظه على ألوان ولا يتثبت على وجه واحد، استدلل بذلك على عدم ضبطه.

٩. واجتهدوا في مقارنة الروايات، ونقد المرويات؛ وبز في ذلك جماعة من الحفاظ؛ فكانت لهم العناية التامة بهذا الشأن، منهم شعبة والثوري، ثم يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي.

١٠. وهذا اقتضى كثرة مجالس المذاكرة؛ فكان الحفاظ يجتمعون، فيتذاكرون الأبواب والشيوخ والأحاديث وطرقها وعللها.

١١. وظهرت في كلامهم بعض القواعد، وبعض التعبيرات، واشتهرت هذه القواعد والتعبيرات بعد ذلك في تلاميذهم ومن جاء بعدهم، وصارت مصطلحات علمية، وكانت النواة الأولى لاستقرار علم "المصطلح".

١٢. فأبلغ أتباع التابعين في حفظ السنن، ومضوا راشدين، وقد غرسوا للحديث غرساً طيباً.

فائدة: الإسناد يدور على ستة من صغار التابعين، فلأهل المدينة ابن شهاب الزهري، ولأهل مكة عمرو بن دينار، ولأهل البصرة قتادة، ولأهل اليمامة يحيى بن أبي كثير، ولأهل الكوفة أبو إسحاق السبيعي والأعمش.

ثم صار علم هؤلاء الستة إلى اثني عشر من المصنفين من كبار أتباع التابعين، فمن أهل المدينة ابن إسحاق ومالك، ومن أهل مكة ابن جريج وابن عيينة، ومن أهل البصرة سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة، ومن أهل اليمن معمر، ومن أهل الكوفة الثوري، ومن أهل الشام الأزاعي، ومن أهل واسط: شعبة وهشيم وأبو عوانة اليشكري.

ثم انتهى علم هؤلاء الاثنى عشر إلى ستة من صغار أتباع التابعين، وهم: يحيى القطان وابن أبي زائدة ووكيع وابن المبارك وابن مهدي ويحيى بن آدم.

تنبيه: انتقلت الخلافة في هذه المرحلة من بني أمية إلى بني العباس، ولا يجد القارئ أثرًا لذلك في كتب السنة، ولا فرقًا بين الأحاديث التي دُوت في زمن الأمويين واشتهرت عن رواها والأحاديث التي في زمن العباسيين، وهذا يثبت نأي الساسة عن السنن النبوية، وعدم تأثرها بتوجهاتهم.

ويؤكد ذلك أن جماعة الأئمة والحفاظ كانوا يجانبون الحُكَّام، وأخبارهم في ذلك متواترة، بل رَووا أحاديث كثيرة تخالف أهواء الأمراء والملوك، ولم يخشَوْهم في الله؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعُنُونَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، بل كان النقاد منهم يذمون الرجل بدخوله في عمل السلطان، وقد يجرحونه بذلك.

تنبيه آخر: لم يحدث أتباع التابعين قاعدة في علوم الحديث، وإنما صاغوا قواعد كان العلماء قبلهم يعملون بها في رواية الحديث ونقده، وهذا كما صاغ النحاة قواعد كانت العرب تلتزمها في كلامها، وقواعد علم "المصطلح" عقلية في الحقيقة، وقد جرت عادة الناس على وجوب العمل بها، ثم أقرتها الشريعة، وضبطتها نصوص الكتاب والسنة، ثم أجمع عليها الصحابة والتابعون ومن بعدهم.



(٥)

عصر تبع الأتباع

١. وكثر المشتغلون بالحديث من تبع الأتباع جدًّا.
٢. والتزم جمهور الرُّواة بالكتابة في مجالس الإملاء، وكثر الاعتماد عند الأداء على ضبط الكتاب؛ احترازًا من الخطأ.
٣. وظهرت طبقات من العلماء في البلاد النائية، فيما وراء النهر، وفي أقصى الغرب؛ فزادوا على من قبلهم في الرِّحلات البعيدة في طلب الحديث، وللعلوِّ، بقصد القرب من النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولِلِقَاءِ الحَفَظِ ومذاكرتهم.
٤. واجتهد أئمَّتهم في استيعاب طُرُق الأحاديث، حتَّى كتب ابنُ مَعِينٍ بيده ألفَ ألفِ حديثٍ، وحَفِظَ الإمامُ أحمدُ ألفَ ألفِ حديثٍ، وكتب غيرهما وحَفِظُوا مئاتِ الألوف من الأحاديث.
٥. وكثرت مجالس المذاكرة، وخاصَّةً بين الحَفَظِ، وعظُمت مجالس الإملاء؛ فربَّما حضرها عشرات الألوف؛ فيبلِّغهم عددٌ من المُسْتَمْلِينَ.
٦. وافتنَّ أهل هذه الطَّبَقَةِ في تصنيف الأحاديث مجرَّدةً عن الموقوفات والمقاطع، فابتكروا المسانيد، فصنَّف يحيى الحِمَّانِيُّ مسندًا بالكوفة، ومُسَدَّدٌ في البصرة، وأسدُّ السُّنَّةِ بمِصرَ، والمُسَنَّدِيُّ ببُخارى، وكان أجَلُّها مسندُ الإمام أحمد، وقلَّ إمامٌ منهم إلَّا وصنَّف حديثه على المسانيد، ثمَّ صنَّف البخاريُّ الأحاديث الصِّحاح، الجامعةَ لشروط الصَّحيح المَجْمَع عليه، وتبعه مسلمٌ، وصُنِّفَت السُّنُنُ، ومنها سننُ أبي داودَ، وجامعُ التِّرْمِذِيِّ، ومُجْتَبَى النَّسَائِيِّ، وسننُ ابنِ ماجه، وكتبوا أجزاءً حديثيَّةً كثيرةً: في مسألةٍ من العلم، أو في أحاديث شيخٍ من الرُّواة، أو في غير ذلك من المقاصد، واعتمدوا في تصانيفهم هذه على كتب من قبلهم وتصانيفهم.
٧. والتزموا الإسنادَ حتَّى في مصنَّفات الفقه والتفسير والاعتقاد.

٨. وقد جود أهل هذا القرن تصانيفهم، وأحسنوا انتقاء أسانيدهم، وعقدوا في إملائها مجالس عظيمة؛ فتواترت عن أصحابها، أو اشتهرت شهرة عظيمة؛ فاستقرت بذلك السنن، وتم تدوينها، وصارت تلك المصنفات مرجع الناس في القرون اللاحقة؛ فلا يكادون يجدون حديثاً زائداً على مجموعها.

٩. وكثر فيهم الحفاظ المختصون بالرواية، والنقاد العارفون، الذين أفنوا أعمارهم في دراسة الأحاديث؛ فحَبَرُوا الرواة، واستقصوا الأسانيد، وسَبَرُوا الروايات، وكشفوا ما فيها من العلل الخفية، فمنهم الإمام أحمد وابن معين وابن المديني، ثم البخاري ومسلم وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، ولم تزل أحكامهم بعد معتمد الناس في التعديل والتجريح، وفي التصحيح والتضعيف.

١٠. وجمع أهل المعرفة تواريخ الرواة، وشرحوا فيها أحوالهم، وأجلُّها "التاريخ الكبير" للبخاري، و"الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم، وصنفوا الكتب المتنوعة في العلل، وأبانوا فيها عن نظير دقيق، وأجلُّها "المسند المعلل" لابن المديني، ودوّنوا علوم أئمتهم في كتب السؤالات، وأشهرها سؤالاتهم لابن معين.

١١. وقد ظهرت قريباً من سنة مائتين بدعة الكلام؛ فطعن المتكلمون في السنن، فقام لهم أئمة الإسلام، وصنف الشافعي "رسالته" في أصول الفقه، واحتج فيها لقواعد علوم الحديث: التي لم يزل عمل المسلمين عليها.

١٢. ثم ضمن الحفاظ مصنفاتهم في الحديث والعلل والرجال جُملاً من هذه القواعد، ومن المصطلحات التي صارت متداولة بين المشتغلين بالحديث، فقرَّبوها إلى طلبة الحديث، وأشاعوها.

١٣. ومنهم من أفردوا في مقدمات ورسائل وملاحق؛ للتعريف بمناهجهم في مصنفاتهم، كمقدمة مسلم لصحيحه، ورسالة أبي داود إلى أهل مكة للتعريف بسننه، و"العلل الصغیر" في آخر "الجامع"، وقد بين فيه الترمذي بعض المسائل الحديثية؛ فكانت تلك الكتابات مرجعاً مهماً للناس بعدهم، والبواكير الأولى للتصنيف في علم "المصطلح".

١٤. وكان هذا الجيلُ بحقِّ جيلاً ذهبياً في خدمة علوم الحديث بأنواعها.

تتمّة: فشأ وضع الحديث بعد المائة واستمرَّ بعد المائتين؛ وكان عامّة الوضع من الرّنادقة، وقصدوا إفساد الدّين وتشكيك المسلمين، ومن المبتدعة، وحاولوا تنفيق مذاهبهم والطّعن على أهل الحديث، ثمّ اجترأ بعض الجهلة من عبّاد الكراميّة والصّوفيّة، فاستحلّوا وضع الحديث في التّرهيب والتّرهيب؛ فاشتدّ ضررهم؛ لإحسان كثير من النّاس الظّنّ بهم، لكنّ العلماء رصدوا ذلك كلّهم، حتّى كان منهم من يحصي تلك الموضوعات كتاباً وحفظاً؛ لئلا تشته على النّاس، وقد فضحوا أولئك الكذّبة، وحذّروا من رواية أحاديثهم إلّا لبيان وضعها.

ومن الرّواة من كان يركّب الأسانيد أو يقلب الرّواة أو يسرق الأحاديث؛ فيكذب في الرّواية، لا على النّبّي صلّى الله عليه وسلّم؛ فكان الأئمّة - وقد أحاطوا بالأسانيد والمرويات - يكشفون ذلك، ويجرحون أولئك، ويطرّحون كلّ مروياتهم.

فائدة: ذكر بعض العلماء أنّ علم المتقدّمين انتهى إلى نقر من الأئمّة من تبع الأتباع، منهم أحمد بن حنبل وابن مَعِين وابن المدينيّ وابن أبي شيبّة وزهير بن حرب ومحمّد بن نُعيم، ومنهم أيضاً: إسحاق بن راهويّة بالمشرق، وأحمد بن صالح بمصر، ودحيّم بالشّام، ثمّ انتقل إلى طبقة تليهم، منهم: البخاريّ ومسلم وأبو زرعة وأبو حاتم الرّازيّان وسائر الأئمّة المصنّفين للسّنن والعلل والتّواريخ.

فائدة أخرى: كان النّبّي - صلّى الله عليه وسلّم - يحدّث في مواضع مختلفة، وربّما لم يشهده إلّا الواحد والاثنان من الصّحابة؛ فلا يبعد أن ينفرد برواية حديث عنه واحد منهم، ثمّ كان الصّحابة يروون الأحاديث عند الحاجة غالباً؛ في سياق فتوى أو قضاء أو وعظ، وقد يشهدهم العدد القليل من التّابعين؛ فلا يُستنكر أن ينفرد تابعي بحديث عنهم، ثمّ ظهرت مجالس الإملاء في التّابعين، وكثرت في كبار أتباعهم؛ فصار العلماء يتأثّون فيما يتفرّد به الواحد عنهم، وقد يستغربونه، فلمّا عمّت مجالس الإملاء في صغارهم، وصار حديث الشّيخ مشتركاً بين طُلابه، أو كاد، صاروا يستنكرون الأفراد، إلّا من الحافظ الملازم للشّيخ، الذي يجوز أن يختصّ بسماع شيء لا يشاركه فيه غيره.

فائدة أخرى: معنى التصنيف في هذا العصر: أن ينظر العالم فيما كتبه عن شيوخه في مجالس الإملاء، أو تحمله عنهم من مصنفات السابقين، ثم يخرج من ذلك أحاديث: يجمعها، ويعيد ترتيبها، ويجعلها في كتاب فيمليه على الناس، وبهذا نعلم أن الأحاديث التي كتبوها كانت معروفة قبلهم.

وكذلك: ما أخرجه البخاري ومسلم في "صحيحيهما"، فقد كان مشهوراً قبلهما، وصححه النقاد، وعمل به الفقهاء، وأخرج أكثره السابقون في مصنفاتهم، ولا يزال كثير منه مروياً في تلك المصنفات.

وقد وافق البخاري ومسلم من عاصرها ومن جاء بعدهما على إخراج أحاديث "الصحيحين" عن شيوخهما، أو عمن فوق شيوخهما، ولم ينفردا بإخراج حديث لا يوجد عند غيرهما، ولا غرو؛ فإن أحاديث "الصحيحين" هي أصح الأحاديث وأشهرها في ذلك الزمان؛ فكيف يستغني عن إخراجها مصنف من العلماء؟!



(٦)

استقرار الرواية بعد الثلثمائة

١. ثمَّ كان أهل الحديث في الطبقة الخامسة ظاهرين، قد تلقَّوا الحديث وأحكامه وعلومه عن تبع الأتباع، واستمروا في الرِّحلات الواسعة، والكتابة عند التَّحْمُل، ومذاكرة الحديث وعلومه، وأنَّسَعوا في تصنيف المسانيد والصِّحاح والسُّنن والأجزاء، وفي العناية بالإسناد حتَّى في كتب الفقه والتَّفسير والاعتقاد.

٢. وكثُر عندهم الإِستخراج على المصنِّفات السَّابقة، بحيث يروون أحاديث تلك المصنِّفات - خاصَّةً "الصَّحيحين" - بأسانيد أخرى، أعلى من أسانيدهم لو رَوَوْها من طُرُق مصنِّفيها، ومن ذلك: "المستخرج على مسلم" لأبي عَوَّانَةَ الإسفَرَايِينِي، و"المستخرج على البخاري" للإِسْمَاعِيلِي، وصنَّفوا معاجم الشُّيوخ، وهي مرَّتبَةٌ على حروف المعجم في أسماء الشُّيوخ، وأشهرها "المعجم الصَّغير" و"المعجم الأوسط"، كلاهما للطَّبْرَانِي.

٣. وتواضعوا - بعد استقرار السُّنن في المصنِّفات المتواترة والمشهورة - على ضبط مَنْ يسمع في مجالس الإملاء، وكتابة أسمائهم في طَباق السَّماع، وعُنُوا بتجويد النُّسخ، واعتمدوا عليها في الرواية عند الأداء.

٤. ثمَّ كان الرَّجل بعدُ إذا احتيج إلى حديثه، وظهرت عدالته، وثبَّت سماعه في الطَّباق بخطِّ ثقةٍ، وحضرت نُسخته التي سمع فيها، وكانت مصحَّحةً متقنةً، أو نُسخةً أخرى مطابقةً، رَوَّاه عنه، مطمئنَّين إلى صحَّة ما يروي، معتمدين على ما ثبت في الطَّباق والنُّسخ، وبذلك تهَيَّأت رواية الأحاديث لعموم المسلمين، وتَمَهَّد للحُقَاق أن يعرفوا صحَّة روايات الثِّقات الأُمَناء، وضعف روايات الكَذبة والأدعياء.

٥. وكان فيهم مع ذلك جماعةٌ من الحُقَاق والنُّقاد، الَّذِينَ فاقوا كثيرًا ممَّن سبقهم في سعة الحفظ وجودة النَّظر، كابن خزيمة وغيره، ثمَّ ابن عَدِيٍّ وغيره، ثمَّ الدَّارَقُطْنِي وغيره.

٦. وصنّفوا في التعريف بالرواة وتواريخهم، فوضع العقيلي كتاب "الضعفاء"، وابن حبان كتابه "الثقات" و"المجروحين"، وابن عدي كتابه "الكامل"، وغيرهم كتباً كثيرة في هذا الشأن.

٧. وكان أول من أفرد علم "المصطلح" بتصنيف مستقل: ابن حبان، فوضع كتابه "شرائط الأخبار"، وابن خلاد الرامهرمزي، فوضع كتابه "المحدث الفاصل".

تنبيه: مع استقرار الرواية نحو سنة ثلثمائة، واعتماد الناس بعد على تصانيف من قبل ذلك، فقد يروى الحديث في كتاب متأخر ولا نجد له أصلاً في كتبهم التي بين أيدينا، وهذا كثير، والجواب على ذلك أن الاعتماد كان على مجموع ما كتبه، ولم يعرف كثير منه، ولم يصلنا كثير منه.

وعليه: فلا يصح رد الروايات المتأخرة بعد الثلثمائة بدعوى أن المصنفين قبلها أعرضوا عن تلك الروايات، أو أنها من حوادث الوهم والخطأ، بل الواجب النظر في تلك الروايات، والحكم عليها بما تقتضيه القواعد، ونحيلها على الأخذ من كتب قبل الثلثمائة لم نعرفها أو لم تصلنا، والله أعلم.

تنبيه آخر: منع ابن الصلاح التصحيح في الأزمان المتأخرة؛ لأن كتب الحديث غير المتواترة عن أصحابها قد نُقلت بأسانيد لا تخلو من غير مُتّقين، وأطبق العلماء من بعده على ردّ مقالته؛ لأنّ الاعتماد في قبول روايات الشيوخ بعد الثلثمائة على ضبط كتبهم، لا على حفظهم، وعلى إثبات الثّقاد المُثبِتين للسماع، وذلك كافٍ في الإطمئنان بصحة الأسانيد إلى تلك الكتب.

لهذا، وتلك المصنّفات معروفة بين المحدّثين، ونسخها مشهورة بأيديهم، ولا يُعتمد في صحتها على إسناده معيّن، وإنّما تُروى لتبقى سلاسل الأسانيد متصلة؛ تشبّهاً بالسلف، وحفظاً لخصيصة الأمة.

تنبيه ثالث: الذي اختلف بعد الثلثمائة إنّما هو شرط الثّقة، كما كان قد اختلف بعد المائة أيضاً، وبيان ذلك أنّ العلماء شرطوا في كلّ مرحلة ما يكفي للثّقة في نقل

الراوي؛ فلمَّا كان الزَّمن قريبًا من حياة النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكانوا يَخْشَوْنَ كَذِبَ أَهْلِ الْبِدْعِ، قَنَعُوا بِحَدِيثِ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَعْنِي: وَالْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ، ثُمَّ لَمَّا طَالَتِ الْأَسَانِيدُ وَاسْتَدْعَى حِفْظُهَا مَزِيدًا مِنَ الْإِتْقَانِ، سَبَرُوا أَحَادِيثَ الرُّوَاةِ، وَطَلَبُوا فِيهِمُ الضَّبْطَ وَالْإِتْقَانَ، فَكَذَلِكَ: لَمَّا اسْتَقَرَّتِ السُّنَنُ فِي الْمَصْنُفَاتِ، وَصَارَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَهَا فِي نُسَخٍ صَحِيحَةٍ، وَيُثَبِّتُونَ التَّحْمُلَ فِي طَبَقَاتِ السَّمَاعِ بِخُطُوطِ الثِّقَاتِ، تَحَقَّقُوا فِي شَرْطِهِمْ؛ فَرَضُوا بِمَا يَكْفِي لِلثِّقَةِ فِي صَحَّةِ الْكِتَابِ الْمَقْرُوءِ مِنْهُ، وَفِي أَهْلِيَّةِ الشَّيْخِ الْمَقْرُوءِ عَلَيْهِ، وَثَبُوتِ سَمَاعِهِ.

وهذا لا يتعلَّقُ بِمَنَاجِجِ الْقَبُولِ وَالرَّدِّ؛ فَلَمْ تَزَلْ مَنَاجِجُ الْمُحَدِّثِينَ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ عَلَى مَا كَانَتْ قَبْلَهَا، بَغَيْرِ فَرْقٍ، وَلَا غَرَوْ؛ فَإِنَّ مَنْ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ أَخَذُوا عَمَّنْ قَبْلَهَا، وَاحْتَجُّوا بِتَبَرُّفَاتِهِمْ، وَسَارُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ، وَنَسَجُوا عَلَى مَنَوَالِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ أَثَرٍ وَاتِّبَاعٍ.



(٧)

عصر الرواية المتأخرة، بعد الأربعمائة

١. واستمرّ المسلمون على الاجتهاد في جمع السنّة، والرحلة في سماعها، وطلب العلوّ عند التّحليل، ونسخ المصنّفات، ومقابلتها، والعناية بطباق السّماع، والتزام الرواية من النّسخ الصّحيحة، ونقلها بالأسانيد، وتدوين الأحاديث في المصنّفات والمستخرجات، ونقد الرّواة والمرويات.

٢. واستدرك أبو عبد الله الحاكم على "الصّحيحين" أحاديث رآها على شرطهما، وتعبّه العلماء في بعض اجتهاده.

٣. وفصل أبو عبد الله الحاكم علم "المصطلح"، وعدّد أنواعه، وشرحها، ومثّل لها، وأسند قواعدها إلى الأئمة المتقدّمين، فجعل علم "المصطلح" فناً مستقلاً، وذلك في كتابه "معرفة علوم الحديث"، ثمّ تتابع النّاس من بعده، فصنّفوا في ذلك مصنّفات كثيرة.

٤. واجتهد علماء هذا العصر في خدمة كتب الحديث المشهورة: جمعاً، واختصاراً، وترتيباً، وتعريفاً برواتها، فمن ذلك "أطراف الصّحيحين" لأبي مسعود الدّمشقيّ، ولخلف الواسطيّ، و"الإشراف على الأطراف" لابن عساكر، و"الجمع بين الصّحيحين" للحميديّ الأندلسيّ، ولعبد الحقّ الإشبيليّ، و"تجريد الصّحاح" لرزين السّرقسطيّ، و"جامع المسانيد" لابن الجوزيّ، و"أطراف الأفراد"، و"تذكرة الحفّاظ"، و"ذخيرة الحفّاظ"، كلّها لابن طاهر المقدسيّ، والأخيران هما أوّل فهرس للأحاديث مرّتب على أوائل متونها، و"التّعديل والتّجريح لرجال الصّحيح" لأبي الوليد الباجيّ، و"الكمال في أسماء الرّجال" لعبد الغنيّ بن عبد الواحد المقدسيّ.

٥. وكانوا يُعنون بالإسناد، على سنّة من سبق، فإذا أورد أحدهم حديثاً، رواه بإسناده، إلى أن تأخّر الزّمان، وطالت سلسلة الإسناد جدّاً، مع كونها تُمّر بالمصنّفين المشهورين ولا بدّ؛ فظهر الاكتفاء بعزو الأحاديث إلى المصنّفات المشهورة، ثمّ يراجعها من يسمّعها؛ ليعرف رواتها ويحكم عليها، ويُرَى هذا في مواضع من كتب البيهقيّ.

٦. ثم لم يزل العزو يزداد في الكتب على حساب الرواية، التي بدأت تنحسر في تدوين الرواة لأسانيدهم إلى الكتب المشهورة في الأثبات والمشیخات والفهارس والبرامج والمقدمات.

٧. ثم ظهرت كتبٌ حديثيةٌ مجردةٌ من الأسانيد، منها "الشهاب" للقضاة، و"الفرزدوس" لأبي شجاع شيرويه الديلمي، و"مصايح السنة" للبغوي، و"الأحكام الوسطى" لعبد الحق الإشيلي، و"عمدة الأحكام الكبرى" لعبد الغني المقدسي، وقد اكتفى الأخيران بالعزو إلى أصحاب المصنفات المشهورة.

٨. وتجردت أكثر كتب الفقه والتفسير والعقائد من الأسانيد.

٩. ومع ذلك: فقد استمرت الرواية بالإسناد في بعض الكتب إلى القرن السادس، ومن ذلك: "شرح السنة" للبغوي و"تأريخ دمشق" لابن عساكر، و"التحقيق" لابن الجوزي.

تتمّة: فشّت بدعة الكلام في المنتسبين إلى الحديث والسنة في هذه المرحلة، وتلوّث بها كثيرٌ من الفضلاء، وكان لازديادها بعد ذلك أثرٌ كبيرٌ في صرف الناس عن علوم الحديث؛ لأنّ المتكلمين يُزهدون في الكتاب والسنة، ويردّون كثيرًا من الأحاديث بأهوائهم، ويطعنون في كثيرٍ من أئمة الحديث، ويخطئون على الرواة والنقل، ولذلك ردّ عليهم جماعة من العلماء، منهم أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه "ذمّ الكلام".

فائدة: من الجهود العظيمة في هذه المرحلة تصانيف الخطيب البغدادي؛ فقد أفرد كثيرًا من علوم الحديث بتصانيف مستقلة، وتضمّن ذلك رواية أحاديث كثيرة بأسانيد، ونقد كثيرٍ من الأحاديث، وكشف عللها، وكان أجل مصنفاته "تأريخ بغداد"؛ فعظم أثر الخطيب البغدادي في علم الحديث، وعوّل على مصنفاته المحدّثون من بعده.



(٨)

نقص الرواية، بعد الستّمائة

١. واستمرت عناية المسلمين بعد الستّمائة بالرواية، والرحلة، والسّماع، والقراءة، وانتساح الكتب، ومقابلتها، وضبط السّماعات والمرويات، وطلب العلوّ، مع الافتنان في بيان أنواعه من الموافقات والأبدال.

٢. ونقص الحفظ في هذه المرحلة.

٣. وكثر الاعتماد على الإجازة المجردة، اعتماداً على كون المصنّفات مشهورة مضبوطة؛ فيرجع المُجاز إلى أسانيد مُجيزه؛ فيروي بها ما أجاز له من الأحاديث، وبذلك بقيت الأسانيد متّصلة، ثم صاروا بعد ذلك يستدعون الإجازة من شيوخ الآفاق للجمع الغفير من النّاس، وللأطفال أيضاً؛ توسعةً على الطّلاب، وتيسيراً للعلوّ.

٤. لكن استمرّ - مع ذلك - سماعُ كتب الحديث وقراءتها، خاصّةً الأمّهات المشهورة والأجزاء العالية.

٥. وكثرت مجالس التّحديث أيضاً؛ فكان المُملّي ينتقي بعض الأحاديث، ويخرّجها من طرق المصنّفات المشهورة، ثمّ يُملّيها أو تُقرأ عليه، وقد يتكلّم على روايتها، ويبيّن درجاتها، وقد يشرح شيئاً من غريبها وفقهها.

٦. وظهرت بعض المصنّفات المسندة في هذه المرحلة، وهي قليلة، وأجلّها: "الأحاديث المختارة" للضيّاء المقدسيّ، وأسانيدها تُمَرّ - ولا بدّ - بمصنّفات سابقة.

٧. وغلب العزوّ جدّاً، حتّى صار هو الأصل المتّبع في كتب الحديث، كما في "رياض الصّالحين" للنّوويّ، و"الترغيب والترهيب" للمُنذريّ، و"الإمام" لابن دقيق العيد، ونحوها.

٨. واتّجه أكثر اشتغال الحفّاظ والمحدّثين بعد الستّمائة إلى تقريب الأحاديث، فظهرت الموسوعات الكبيرة: التي تضمّ أحاديث كتب كثيرة.

فاشتهرت كتب الأطراف، وهي مرتّبة على المسانيد، وأجلّها "تحفة الأشراف" للمزّي، و"إتحاف المّهرة" لابن حجر.

ثمّ ظهرت الجوامع المرتّبة على أبواب العلم، وأهمّها "جامع الأصول" لأبي السّعادات بن الأثير.

ثمّ ظهرت كتب الرّوائد، وفيها الأحاديث الرّائدة على الأمّهات المشهورة، وهي مرتّبة على أبواب العلم، وأشهرها "مجمع الرّوائد" للهيتمي، و"إتحاف الخيرة المّهرة" للبوصيري، و"المطالب العالية" لابن حجر.

وقصد السيوطي أن يستوعب الأحاديث؛ فوضع "الجامع الكبير"، ثمّ استلّ منه "الجامع الصّغير"، وألحق به "زيادته".

٩. واتّجهوا كذلك إلى تخريج الأحاديث - أي: عزوها إلى مواضعها في بطون الكتب المُنسدة الكثيرة - ودراسيتها لتمييز صحيحها من ضعيفها، فصنّفوا تخاريج للكتب في مختلف الفنون، ومن أشهرها: "تخريج الهداية" للزيلعي، و"البدر المنير" لابن الملقّن، و"التّمييز" لابن حجر، وصنّفوا تخاريج للأحاديث المشتهرة على ألسنة النّاس، وأجلّها: "المقاصد الحسنة" للسّخاوي.

١٠. واتّجهوا كذلك إلى جمع تراجم الرّواة المتفرّقة في كتب السّابقين، ودراسة كلام الأئمّة فيهم: جرحاً وتعديلاً، وصنّفت مصنّفات عظيمة في ذلك، منها: "تهذيب الكمال" للمزّي، وفروعه الكثيرة، و"ميزان الاعتدال" وغيره من كتب الدّهبي.

١١. وصنّف ابن الصّلاح "المقدّمة" المشهورة في علم "المصطلح"، فلقت عناية النّاس إلى جمع علوم الحديث، ودراستها، وضبط قواعدها، التي استنبطها العلماء المتأخّرون من تصرّفات الحفّاظ المتقدّمين، وربّما احتجّوا لها بما ذكره الأصوليون، فكُتبت بعده كتابات كثيرة، وأهمّها تحقيقات الزّين العراقي وتلميذه ابن حجر.

١٢. واستمرّ الحال على ذلك - رواية، وترتيباً، ونقداً، وتقعيداً - إلى أوائل القرن العاشر.

تنبيه: فُقدت في هذه المرحلة جملة من كتب الحديث والتّواريخ المصنّفة قبل قرون؛ فلم يقف عليها العلماء بعد، وسبب ذلك أنّ غير تلك الكتب صرّفت أنظار أهل الحديث عنها؛ خاصّة الكتب المتأخّرة التي حوت مهمّاتها مع حسن الجمع وجودة التّرتيب؛ فقلّ الاهتمام بتلك الكتب شيئاً فشيئاً، حتّى أهملت فلم تُقرأ ولم تُنسخ؛ فنُسيت وضاعت نُسخها، ولم يقف المسلمون بذلك شيء يحتاجونه في دينهم، والحمد لله.

والأمة معصومة في مجموعها عن تضييع واجب؛ فلا يُظنّ بهم - وقد حفظوا لنا فضلات كثيرة في مختلف الفنون - أن يهملوا ما يحتاجونه في دينهم من الأسانيد والمتون والعلوم.



(٩)

عصور الضعف، بعد التسعمائة

١. ثم ضعف الاشتغال بعلوم الحديث في أثناء القرن العاشر، واكتفى أكثر الناس بجهود السابقين، وتكرارها، ونسخ الكتب، وروايتها، وإبقاء سلسلة الإسناد متصلة بالرواية، ولو بالإجازة.

٢. وغلبت الرواية بالإجازات المجردة، مع طلب العلو مطلقاً، ونقصت قراءة المصنّفات على الشيوخ؛ فكثرت كتب الأثبات، وظهرت كتب الأوائل الحديثية، ويروي مصنفوها بأسانيدهم أول حديث من المصنّفات المشهورة؛ لتقرأ عليهم تلك الأوائل، ويحيزوا سائر الكتب؛ فيجتمع للطالب سماع وإجازة.

٣. واستمر الحال على ذلك عدة قرون، وربما برز في علم الحديث الواحد بعد الواحد، فمنهم الشمس البابلي، وأبو العلاء العراقي، والملا علي القاري، ومرضى الزبيدي، والشوكاني، وصنفت بعض المصنّفات المفيدة في علم الحديث، فمنها "كنز العمال" للمتقي الهندي، و"جمع الفوائد" للروداني، و"ذخائر المواريث" لعبد الغني النابلسي.

٤. وظهرت في أثناء ذلك نخضة حديثية مباركة في الهند، ابتدأها الشاه أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، بعد عودته من رحلته الحجازية إلى الهند سنة ١١٤٥، وخلفه ابنه: عبد العزيز الدهلوي، ثم سبطه: محمد إسحاق الدهلوي، ثم خليفته: نذير حسين، وأثمر ذلك ألوفاً من علماء الحديث وطلبته، وشروحاً كثيرة لأُمّات كتب الحديث، ومدارس علمية تُعنى بإقراء الحديث وتدريسه، وظهور جماعة أهل الحديث، ثم عظم أتباعها في تلك البلاد.

٥. وقد تأخرت طباعة الكتب الإسلامية؛ لعدم الحاجة إليها في القرون الماضية؛ لكثرة العلماء، خاصة المشتغلين بالحديث، واجتهادهم في النسخ والمقابلة، ولخشية انتشار التحريف والأخطاء في انتشار المطبوعات، فلما ضعفت الهمم، وتطوّرت الطباعة وأمكن ضبط المطبوعات وتحويدها، أذن العلماء فيها؛ فاجتهدوا في جمع النسخ العتيقة المتقنة، فانتسخوها، وقابلوها بها، وطبعوا الكتب بما أمكنهم من الضبط والتصحيح.

٦. فطُبِعَت أمّهاتُ كتب السُّنَّة والتَّراجم في الهند ومصرَ وإسطنبولَ، وأمر السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بطباعة "صحيح البخاري"؛ فاجتمع لذلك نخبةٌ من العلماء، واعتمدوا أوثق النُّسخ، وبالغوا في المقابلة والتَّصحيح؛ فكانت طبعةً مُتَقَنَّةً، واشتهرت بين النَّاس. و٧. وبذلك انتشرت كتب الحديث في البلاد، وكثُرت في المكتبات الخاصَّة والعامَّة، وساعد هذا في حفظ السُّنة وعلومها.

فائدة: سبيل من أراد الرِّواية في هذه المرحلة - وفي عصرنا أيضًا - أن يرتقي بإسناد شيخه إلى أصحاب الأثبات المتأخِّرة المشهورة، ثمَّ يرتقي بأسانيدهم إلى أصحاب الفهارس المتقدِّمة، ثمَّ يرتقي بأسانيدهم إلى مصنِّفي الكتب المشهورة، ثمَّ يرتقي بأسانيدهم إلى النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم.

فائدة أخرى: ذكر الوليُّ الدَّهْلَوِيُّ أَنَّهُ اتَّصل سنده بسبعةٍ من المشايخ الجِلَّة الكرام المجمع على فضلهم، وهم: الحافظ البَابِلِيُّ، وعيسى الثَّعالبيُّ، ومحمَّد بن سليمان الرُّودَانِيُّ، وإبراهيم الكُورَانِيُّ، وحسن العُجَيْمِيُّ، وأحمد بن محمَّد النَّخْلِيُّ، وعبد الله بن سالم البصريُّ، فهؤلاء - ومعهم النَّاج القُلَعِيُّ - مَدَّار رواية الحديث في الأزمنة اللاحقة.



(١٠)

العصر الحاضر

١. واستمرَّ المسلمون في عنايتهم بالرَّواية، واتَّصال الأسانيد، وطلب العلِّو فيها، وفي طباعة كتب الحديث والرِّجال، وخدمتها.

٢. ثمَّ يسَّر الله في أثناء القرن الرَّابِع عشرَ نهضةً حديثيةً كبرى؛ فأقام في الأمة عددًا من المحدثين، منهم علماء في الهند، والشيخ أحمد بن شاكر، والشيخ عبد الرَّحمن بن يحيى المَعْلَمي، ثمَّ الشيخ ناصر الدِّين الألباني؛ فأفرد سلسلةً للأحاديث الصَّحيحة، وأخرى للأحاديث الضَّعيفة، وعظمت جهوده في التَّخريج والنَّقد، وقَرَّب السُّنَّة إلى عموم الأمة؛ فنَهَض بعلم الحديث، ونوَّه به، حتَّى كثر طُلَّابه والمشتغلون به؛ فكان بحقِّ المجدِّد لهذا الشأنِ على رأس القرن الخامس عشر.

٣. وافتتحت أقسام الحديث، وكلِّيَّاته، ومدارسه، ومراكزه البحثية، فكثُر طُلَّاب علم الحديث، والمختصُّون به، والمتقِّنون له، واجتهدوا في التَّصنيف في علوم الحديث، وفي تعليمها.

٤. وحقَّق العلماء والباحثون الكتب الحديثية، وخرَّجوا الأحاديث، ونقَّدوها، وأذاعوا ذلك، حتَّى صارت السُّنَّة النَّبوية قربةً من متناول النَّاس.

٥. ثمَّ ظهرت البرامج الحديثة، فيسَّر الله بها على المشتغلين بالحديث، وقَرَّبَت الوصول إلى الأسانيد والرُّواة، حتَّى لغير المختصِّين.

٦. وظهر في هذا العصر جماعةٌ من المستشرقين، من الكُفَّار والملحدين؛ فاستغلُّوا ضعف المسلمين؛ فطعنوا في دينهم عمومًا، وفي السُّنَّة النَّبوية خصوصًا، وأثاروا الشُّبهات الكثيرة؛ فقام لهم جماعةٌ من العلماء، فأجابوا عليهم، وأبطلوا شُّبهاتهم، فكفَّوا وشقَّوا، ولم تَعْلَق بالسُّنَّة شبهةٌ - بحمد الله - ولا شكٌّ.

٧. ثُمَّ تَبَعَ الْمُشْرِقِينَ أَذْنَابُ مِنَ الزَّنادقة فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَنَبَشُوا قُبُورَ الشُّبُهَاتِ الْبَالِيَةِ، وَنَشَرُوهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَتَغَافَلُوا عَنِ الرُّدُودِ الْوَافِيَةِ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُقْتَلْ بِالرَّدِّ وَالتَّفْنِيدِ، وَقَدْ مُكِّنَ هَؤُلَاءِ الزَّنادقةُ - مَعَ جَهْلِهِمْ وَضَعْفِ عَقُولِهِمْ - مِنْ مَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ، وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، وَمَوَاضِعِ التَّأْثِيرِ؛ فَفَقَّهُوا سَمُومَهُمْ فِي الْعَوَامِّ، وَشَكَّكُوا فِي الدِّينِ، وَلَا سَيِّمًا السُّنَنِ وَالْأَحَادِيثَ، وَعَظَّمَتِ فِتْنَتَهُمْ.

وَلَا يَزَالُ طَلِبَةُ الْعِلْمِ وَالْبَاحِثُونَ يَكْشِفُونَهُمْ، وَيَرُدُّونَ شُبُهَاتِهِمْ، وَيَنْصُرُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مَعَ قَلَّةِ إِمْكَانَاتِهِمْ، وَشِدَّةِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ، وَتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْهُمْ، وَتَكْمِيمِ أَفْوَاهِهِمْ، لَكِنَّهُمْ - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَقْوِيَاءُ بِالْحَقِّ الَّذِي مَعَهُمْ، وَبِالدَّلِيلِ وَالْبِرْهَانِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فائدة: ظهور الإسلام وعدُّ إلهي لا يمكن منعه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٣٦﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٣٧﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩﴾ [الصَّف: ٨-٩].

وَأَكَّدَ هَذَا الْوَعْدَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَدْ أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَمِينِ بِوَحْبَةِ الْحَسَنِ إِجَازَةً، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَبِيرِ الْكَتَّانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَرَوَيْشٍ السُّكْرِيِّ، عَنِ الْوَجِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكُزَيْبِيِّ، عَنْ مُصْطَفَى بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّحْمَتِيِّ.

ح. وَأَخْبَرَنَا الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ النَّاخِبِيِّ إِجَازَةً، عَنْ عَمْرِ بْنِ حَمْدَانَ الْمَحْرَسِيِّ، عَنْ أَبِي النَّصْرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْخَطِيبِ، عَنْ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الْعَزَبِيِّ الدِّمَشْقِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابُلُسِيِّ.

كِلَاهُمَا عَنْ جَدِّ الثَّانِي: عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ النَّابُلُسِيِّ.

ح. وأخبرنا الشيخ محمد مطيع بن محمد واصل الحافظ إجازةً، عن عبد المحسن بن عبد القادر الأسطواني، عن محمد بن الحسن البيطار، عن عبد الغني بن عبد القادر السقطي، عن أحمد بن علي الميني، عن أبي المواهب محمد بن عبد الباقي الحنبلي.

كلاهما عن النجم محمد بن محمد العزي، عن أبيه: البدر محمد بن محمد العزي، عن الجمال إبراهيم بن علي القلقشندي، عن عبد الرحمن بن عمر القباي، عن أبي الفتح محمد بن محمد الميذومي، عن النجيب عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني، عن أبي المكارم أحمد بن محمد اللبان.

ح. وأخبرنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الحي الكتاني إجازةً، عن محمد الطيب بن محمد النيفر، عن محمد بن الحسن الكنبي المكي، وأحمد منة الله بن أحمد الشباسي، عن محمد بن محمد بن أحمد الأمير الكبير، عن الشهابين: أحمد بن عبد الفتاح الملو، أحمد بن الحسن الجوهر، عن عبد الله بن سالم البصري.

ح. وأخبرنا الشيخ أحمد بن أبي بكر الجبشي إجازةً، عن محمد عبد الباقي بن علي اللكنوي، عن فضل الرحمن بن أهل الله المراد آبادي، عن عبد العزيز بن أحمد الدهلوي، عن أبيه: الولي أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، عن التاج محمد بن عبد المحسن القلعي.

كلاهما عن الشمس محمد بن العلاء البجلي، عن الشمس محمد بن أحمد بن حمزة الرملي، عن زكريا بن محمد الأنصاري، عن محمد بن مقبل الحلبي، عن الصلاح محمد بن أبي عمر المقدسي، عن الفخر علي بن البخاري، عن عفيفة بنت أبي بكر الفارفائي.

كلاهما عن أبي علي الحسن بن أحمد الحداد أنه قال: أخبرنا أبو نعيم قراءة عليه، قال: حدثنا ابن خلاد النصيبي، قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال: حدثنا عارم قال: حدثنا حماد بن زيد، قال: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان - رضي الله عنه - أنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضربهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله عز وجل».

وأبو نُعَيْمٍ هو: أحمدُ بن عبد الله الأصبهاني، وابن خَلَّادٍ هو: أحمدُ بن يوسفَ بن خَلَّادٍ، وعارمُ لقب، واسمه: محمدُ بن الفضل السَّدُوسِيُّ، وأَيُّوبُ هو: ابن أبي تَمِيمَةَ السَّخْتِيَانِي، وأبو قِلَابَةَ اسمه: عبد الله بن زَيْدِ الجَرْمِي، وأبو أَسْمَاءَ اسمه: عمرو بن مَرْثَدٍ، وقيل في اسم أبيه غير ذلك، وثوبانُ هو مولى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم.

وهذا الحديث رواه الإمام مسلمٌ في "صحيحه" عن سعيدِ بن منصور، وأبي الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِي: سليمان بن داودَ العَتَكِي، وقتيبة بن سعيد، عن حمادِ بن زيدٍ به، وقالوا فيه: «لا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ»، وقال الأولان في آخره: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

فوافقنا الإمام مسلماً في شيخ شيوخه، ووقع لنا بدلاً عالياً، والحمد لله.

وللحديث شواهد كثيرة في "الصَّحِيحَيْنِ" وغيرهما.



استدراك

فيه وصايا وتوجيهات لأهل الحديث المعاصرين

ونحن اليوم على ما قاله - صَلَّى الله عليه وسلّم - من الشّاهدين؛ نراه ونعيشه حقيقة؛ فلا نزال - بفضل الله - نقرأ السنن غُصَّةً طَرِيَّةً، نعرف صحيح الأحاديث ونعمل به، ونعرف سقيمها فنتجنّبها ولا نغترّ به، وكأنّ النّبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - حيّ بين أظهرنا، والحمد لله.

وهذه نعمة عظيمة يسرّ الله - جلّ ثناؤه - لها أهل الحديث طبقةً بعد طبقة، وقد أوجب علينا - سبحانه - أن نضطلع بحفظ السنّة اليوم؛ لتبقى أبواب الهداية مفتحة في الأجيال التّالية، وتبقى حجّته قائمة على الخلق أجمعين.

وهذه توصيات لإخواني المشتغلين بالحديث: رواية ودراية - تنبّه على وجوه من الخلل قد تسلّلت إلى بعضهم؛ ليستدركوا، ويستكملوا جهودهم، وبالله - تباك وتعالى - التّوفيق، ومنه القبول.

١. قد انتعشت رواية الحديث في السّنوات الأخيرة، وتيسّرت مجالس القراءة على الشيوخ، وكثرت مع انتشار وسائل الاتّصال الحديثة، لكنّ يقع في كثير من تلك المجالس خلل في أداء الحديث وتحمله، وأوهام في حكاية الأسانيد؛ فعلى أهل الرواية مراعاة شرط أهل الحديث فيها، وهو ضبط المرويّ، والتّحرّي عند الرواية، والدّقّة في سياق الأسانيد عن العلماء والثّقات.

٢. واشتدّت حرب الكُفّار والمنافقين على السنّة النّبويّة، وتنوّعت وسائلهم في نشر الشُّبّهات وتزيينها، وعظمت الفتنة بذلك؛ فلا يسع أهل العلم السُّكوت، ولا التّراخي في ردّ هذه الشُّبّهات، وكشف زيفها بالأدلة المقيّنة، وينبغي تحصين المسلمين، وتعميق إيمانهم بتقريب علوم الحديث من أفهامهم، وعرضها بصورة واضحة، وإيصال حقائقها إليهم بجميع الوسائل المتاحة.

٣. وكثرت دروس الحديث في الجامعات والمعاهد والمساجد، لكن يُلاحظ ضعف بعض المعلمين، أو اكتفاؤهم بمواد هزيلة: لا تُسمِنُ الطُّلابَ، ولا تُشبع نَهْمَتَهُمْ؛ فيجب على المعلمين التَّقْوِي في أنفسهم، ثمَّ استفرغُ الجُهد في تنشئة طُلَّابهم، وتكميل بنائهم العلميِّ، ولا سيَّما في علوم الحديث.

٤. وتسارعت الحركة العلميَّة في تحقيق الكتب ودراسة أحاديثها، لكن يُلاحظ الخلل في كثيرٍ من الطَّبَّعات، ويظهرُ فيها التَّصحيفُ والسَّقْطُ، والانحرافُ عن المناهج العلميَّة للتحقيق، ويُلاحظُ القصورُ في كثيرٍ من التَّحاريج، وتفحُّش فيها الأوهام، والأخطاء في تطبيق قواعد علم "المصطلح"، فيجب على المتصدِّين لتحقيق الكتب والحكم على الأحاديث التَّضلُّعُ بالعلم، والتَّأَنِّي فيما ينشرون، والإتقانُ لمناهج التَّحقيق وقواعد علوم الحديث؛ لتخرج أعمالهم في أحسن صورة.

٥. وتنوعت البرامج الحديثة التي تسهِّل الوقوف على طرق الأحاديث أو تراجم الرُّواة، وقد يتقاعد بعض الباحثين والطُّلاب عن الاجتهاد، فيقتصرون على ما توصلهم إليه تلك البرامج، وهذا يؤدِّي إلى وجوه من الخطأ في الحكم على الرُّواة والمرويات، والواجب عليهم سلوك المناهج المعروفة لتخريج الحديث، واستقراء مظانِّ الجرح والتَّعديل؛ لاستيعاب كلِّ ما يؤثِّر في الحكم على الراوي أو المرويِّ.

٦. وعظمت العناية بتقرير مسائل "المصطلح" وتنقيحها، وصُنِّفت فيها مصنِّفات كثيرة، لكن نشأ من يدعي التَّفاوت بين منهج الأئمة المتقدِّمين ومنهج العلماء المتأخِّرين في التَّصحيح والتَّضعيف، وفي الجرح والتَّعديل، وصاروا يتحكَّمون في عزو مقالاتٍ إلى المتقدِّمين: يتلقَّطونها من كلماتٍ متفرِّقة: لا يتشكَّل منها منهجٌ كُلِّيٌّ، ويؤاخذون المتأخِّرين بزلاتٍ: لا ترسِّم منهجاً عاماً لهم؛ فاضطربوا في هذه المقالة أيَّما اضطرابٍ، والصَّواب الَّذي جرى عليه عمل المسلمين من قرونٍ، وأجمع عليه المحدِّثون أجيالاً متعاقبةً، ويشهد به استقراء الواقع - أنَّ المتأخِّرين تَلَقَّوا عن المتقدِّمين، وَفَقَّو آثارهم، واحتجُّوا بقواعدهم، ولم يتفقوا على مخالفتهم في مسألةٍ أجمعوا عليها، ولا خرجوا عن مذاهبهم في مسألةٍ اختلفوا فيها، وإن أخطأ بعضهم في بعض المسائل، كما يكون في جميع العلوم.

٧. وفشَى العلم، وسهلت وسائله، وكثرت مجالسه، وبذله العلماء غايةً جُهدهم، لكنَّ الدَّاءَ العُضالَ في زماننا عزوفُ أكثر المسلمين عن تعلُّم دينهم، وعن علوم الحديث خاصَّةً، حتَّى أطبق الجهلُ وضعفُ اليقين، فيجب على الدُّعاة والمُصلِّحين دراسةُ أسباب هذه الآفة، والبحثُ في كَيْفِيَّةِ علاجها، والاجتهادُ في تنبيه الغافلين، ووعظُ المقصِّرين؛ ليقومَ في الأُمَّة من يكفي لتلقِّي علوم الشَّريعة، وتحقيقها، ودفعِ الشُّبهات عنها، وإحيائها في التَّطبيق العمليِّ في واقع المسلمين على الوجه الأتم.



الخاتمة

نسأل الله حُسْنَهَا

الحمد لله على التمام، أحمدُه - سبحانه - وقد أعان على الختام، والصلاة والسلام على رسوله وصحبه الكرام، وعلى أهل الحديث ما صحَّ إسنادٌ واستقام.

وبعد، فقد اختصرتُ في هذا المبحث من عُمر الأمة الإسلامية زمنًا طويلاً، ولخصتُ من حياة العلماء والرواة جهودًا عظيمة، فاقتصرت على الأهم، وتركت مهمات كثيرة، وما لا يدرك جُلُّه لا يُترك قُلُّه، واكتفيت - في سبيل الاختصار - بإشارات يفهما المُحصِّل الفطن، وأوجزت العبارات؛ فأودعتُ الكلمات صفحات.

فليستعن بالله من ينظر في هذا المبحث، وليقرأه في تأنيٍّ وتدبُّرٍ، ليفهم تسلسل الأحداث والمراحل، وليربط النتائج بأسبابها، وليراجع المسائل في مظانِّها؛ فيطمئن إلى دينه طمأنينةً مبنيةً على دليلٍ تفصيليٍّ، والله - سبحانه - الموفق.



المحتويات

المقدمة.....	٣
توطئة: معنى "تأريخ السنة النبوية".....	٤
تمهيد: أدلة حفظ الله - عز وجل - للسنة النبوية.....	٦
مدخل: معنى حفظ الله - عز وجل - للسنة النبوية.....	٨
(١) عصر النبي صلى الله عليه وسلم.....	١٠
(٢) عصر الصحابة، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.....	١٤
(٣) عصر التابعين.....	١٨
(٤) عصر أتباع التابعين.....	٢٢
(٥) عصر تبع الأتباع.....	٢٥
(٦) استقرار الرواية بعد الثلثمائة.....	٢٩
(٧) عصر الرواية المتأخرة، بعد الأربعمائة.....	٣٢
(٨) نقص الرواية، بعد الستمائة.....	٣٤
(٩) عصور الضعف، بعد التسعمائة.....	٣٧
(١٠) العصر الحاضر.....	٣٩
استدراك فيه وصايا وتوجيهات لأهل الحديث المعاصرين.....	٤٣
الخاتمة.....	٤٦





تَمَّ بحمد الله تبارك وتعالى

وكتبه

فيصلُ بن محمد بن حميد القلافُ

وكان الفراغ من تبييض هذه النسخة - وهي الثالثة -

ليلة الاثنين، عاشر رمضان، سنة ثلاث وأربعين، أتمها الله وما بعدها في خير

في الكويت، حرسها الله، وسائر بلاد المسلمين

